مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية

المجلد (11) العدد (03) السنة (2024)
الصفحة 287-301

رؤية الأنا في رحلة ابن حمادوش

The Ego-vision Through the Journey of Ibn Hamadouche

حنان بزيو[1]*، أ.أحلام عثامنية[2]

1جامعة 08 ماي1945 قالمة (الجزائر)، bezziou.hanan@univ-guelma.dz

2 جامعة 08 ماي1945 قالمة (الجزائر)، athamnia.ahlem@univ-guelma.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2023/09/13
تاريخ القبول: 2024/06/30

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص:

حفل الجنس الرّحلي بتمثيل الأنا والآخر، فصوّره بناءً على ثقافته وتصوراته الأولية، وهذا الواقع الخيالي المجسد لما هو مقروء أو مسموع من رحلات السّابقين الّذين تواصلوا حضاريًا مع الآخر المختلف، فكانت رحلة ابن حمادوش كغيرها من الرّحلات المغاربية الّتي حاولت تدارك وتغيير الوعي الجمعي الّذي اكتفى ببعض الرؤى، ساعيًا بذلك الرّحالة إلى الكشف عن صورة الآخر الّتي هي بالضّرورة اكتشاف للأنا نفسه. فماهي الرؤى الجديدة التي تبناها الرّحالة عن ذاته والآخر؟ وفيما تمثّلت هذه الرؤى داخل النّص الرّحلي؟

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، المركز، الرؤية، الواقع الاجتماعي

ABSTRACT

The nomadic text field represents the self and the other. It depicts its images according to its culture and initial perceptions. This imaginary reality includedin the nomadic discourse is nothing but the embodiment of a reading and listening memory built on the experiences of the journeys of the past which communicated culturally with the different other. Ibn Hamadouch's journey was like other Maghreb journeys that he had. I tried to remedy some of the dilemmas of the collective consciousness, which presents us with a discourse that is sometimes fallacious and truthful at other times about the different. The traveller sought on this journey to reveal the image of the other with all its cultural components. This initiative is nothing but a serious attempt to discover the ego itself, and based on it we try to approach the following problematic: What are the new visions that the traveller adopted about himself and the other? What were these visions represented within the travel text?

Keywords: ego, other, center, vision, social reality.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

يصوّر الأدب الرّحلي مجموعة من الأحداث الواقعية ، داخل تضمينات تحتوي على معارف متنوّعة في أشكال خالصة، توضح من خلالها رؤية الأنا ما يودّ الدّارس معرفته عن ثقافتها، بالمقارنة مع ثقافات الشّعوب الّتي تكلم عنها، فيستعين الرّحالة بسرد بعض الانطباعات عن نفسه وعن غيره ، انطلاقا مما رآه وسمعه، وهذا ما ساهم في زيادة وعي وإدراك الرّحالة للآخر المختلف عنه، ويتّضح ذلك من خلال استعانة الأنا ببعض الرّؤى لتبيين بعض المواقف الظّاهرة أو المضمرة عن أناها، أو عن الآخر المنتمي أو المختلف عنها، وهذا ما يضفي أهمية بارزة على هذا الموضوع، ذلك أنّه يسلط الضّوء على الخصوصية الّتي تشكلت منها هذه الرّؤية، كما يبرز أهم تمثلاتها من خلال الجنس الرّحلي.

2.مركزية الأنا في العلم:

تغيرت علاقة الأنا بالآخر في النّصوص الرّحلية، بناء على نظرة الأنا لذاته وللآخر، فنجد في نصوص ابن حمادوش أنّه يحتل المركزية في مقابل يقدم الآخر كهامش، بالأخص في عملية التّعلم الذاتي، وفي طلبه للتّعلم من الآخر العليم، فظهر الرّحالة في نصوصه بشكل منطقي مبينا الفرق في المستوى التعليمي بينهما، فكان في كل جزئية يقارن نفسه بالآخر، مما جعل القارئ يشعر بدونية الغريب و فوقية الأنا، ومن تجليات مركزية الأنا نذكر منها:

1.2 : العقل مقابل العاطفة في شرح اللّغز:

كان لعصر التّدوين فضل كبير في إبراز الألغاز الّتي انتقلت من الشّفوي إلى المكتوب، فهاهي تظهر على شكل رموز وكنايات في الرّسالة، وغيرها كـ" المعاياة والعويص والرمز والمحاجاة وأحجيات المعاني والملاحن والمرموس والتّأويل والكناية والتّعريض والإشارة والتّوجيه والمعمى والممثل" (أحمد، 1987، صفحة 20) فاختار الرحالة منها ماينا سب رحلته وموضوعه " فن المعاياة" فعلى الأغلب يريد أن يظهر قوته في فهم الألغاز الّتي صعبت على غيره، بالإضافة إلى شعورنا نحن كقراء على غربتها وصعوبتها، هذا ما يساهم له بشكل كبير في إظهار قدراته العلمية ومركزيتها داخل الرحلة.

يوظف الرحالة في خطابه التّوجيهي مجموعة من الحجج الّتي علق بها على شرح لغز الآخر؛ ليبيّن قدراته في تصحيح أخطاء الشّرح ، فنجده في هذا النّموذج يصحح لرأي محمد الشافعي حينما تحلى هذا الآخر برأي، يراه فيه الرحالة اعوجاج كبير من حيث المنطق، في قوله: "وأما في المعنى فالصبح حاجب واحد للجميع في وجه واحد، أي في وجه سماء الدنيا، فان الصبح إنما يظهر لنا فيه إذ لا نرى من السماوات غيره". (حمادوش، 2015، صفحة 135) . لم يقنع القارئ بهذه الحجج؛ لأنّه يرى بأنها تستهدف العاطفة، فبيّن الأنا عيب الآخر برده عليه؛ ليبين له أخطاءه في الرّأي، فنجده يوظف مجموعة من الحجج العقلية الّتي نراها في حلة مقنعة جدا، يعتمد الرّحالة على جل أنواع الحجج تقريبا ؛كونه يدرك كيفية تبيين صحة شرحه ،بحجج تستهدف عقلي المتلقي لا عاطفته ، فيتجلى تصحيحه للظّاهرة الطّبيعية للصّبح، في قوله: "صبح لأنه يظهرهم عيانا للرائي" . (حمادوش، 2015، صفحة 135).اعتمد الرّحالة في بناء هذه الحجة السّببية على واقع الصّبح الّذي يظهر عيانا للمرائي، فربط السّبب بالنتيجة؛ بتوظيفه لأداة التّعليل" لـ" ،كما استشهد بإشارة الشّيخ الشّاوي؛ ليؤكد قلة صواب الآخر، في قوله: " رجيم مارد متمرد أي أبوهم الّذي هو على

العرش المجيد محيط بالسماوات والّذي هو على صورة هدهد منمقة بالكواكب تنميق الهدهد بالنقط" . (حمادوش، 2015، صفحة 136) .يشبّه الآخر في هذه الصورة الحجاجية النّقط المزينة الموجودة على الهدهد بالنمش الطّبيعي، فيظهر هذا التّشبيه ذوق الرّحالة المعجب بالتّنميق والمعد من علامات جمال المرأة في الوقت المعاصر، فاستشهاده بهذه الصّورة الشّعرية يبين فيها براعته وذوقه المتفرد في اختيار ما يبين صحة رأي الرّحالة وقلة صواب الآخر، وهذا طبعا باختياره لأجود الصّور الجامعة بين جمال المرأة وجمال الحيوان.

أما في استعمال الآخر للحروف والأسماء في رأيه، فقد قال: "أبوهم لو قال أبوها كان حسنا، أي بنات نعش. له حرفان من اسم جعفر وحرفان من اسمي علي وأحمد". (حمادوش، 2015، صفحة 135).فيصحح له الرّحالة في هذا الرّأي، بحجج نراها جيّدة تبين ضعف الآخر وتؤكد استعماله للعاطفة كذلك، دحضها الأنا بحجة المثال، ف شبه فيها بعض حروف العرش المجيد باسم جعفر ؛ لوجود علاقة تشابه بين الموضوع والمثال في حرف العين والرّاء، أمّا من الاسم "المجيد" فقد شبهها بالمثال من اسم أحمد في حرفي الميم والدّال، كما وظف حرف الربط" أو" للدلالة على التّخيير بين حرفي الميم أو الدال، فهاهو يثبت صحة رؤيته الضّدية لرأي الشّافعي بالصّور الّتي فيها من البلاغة والخيال، عكس الآخر الذي يبني آراءه على عاطفة المتلقي، فأخبرنا بما يظهر اضطراب الآخ ر في بعض المعاني، قوله: " ففي النّثر قال الّذي غير في الشّعر لأنّه استشهاد" (حمادوش، 2015، صفحة 136)، لم يترك الأنا نوعا من الحجج التي لم يستشهد بها ليبين مدى ضعف الآخر في تقديم شرح اللّغز، هذا ما أعطى الأنا المركزية في قوة إثباتاته المعرفية، فهو يقوم بتوظيف الحجج الّتي تستهدف عقل المتلقي، وتعتمد في جوابها على تعليم القارئ، كما يرى بتوظيفها أنّه يملك من المنطقية الكثير حينما يقدم حججا تستهدف عقل المتلقي على عكس الآخر الّذي رأيناه استهدف بحججه العاطفة.

2.2 العليم/ الجاهل :

تختلف اللغة التعبيرية باختلاف أحوال الأنا من زمن وجداني إلى زمن حسابي وغيره، لذا لم تغب دلالات الزّمان والمكان داخل أي جنس أدبي نظرا لتداخل المضامين والخطابات داخل الرّحلة.

يستمر الأنا بتطوير مدراكه العلمية في رحلته، فنجده يغلب على سرده تحديده الزمني لأي فعل يقوم به، فهاهو يحدد على سبيل المثال الزّمن الوجداني لقراءته لمقامات الحريري" يوم الثّلاثاء" المسبوق بالفعل " ختمت في بيته الّذي بتطوان" (حمادوش، 2015، صفحة 80)، " ليدل على حبه الامتناهي في تطوير نفسه، عكس شبابنا اليوم الّذين يتخذون من الرحلة وقتا للتنزه والمرح، فكان تأثير المكان الّذي عمّ فيه الخير على أناه وعلى لآخر بمثابة الدّاعم له في انهاء المقامة، هذا ما يدل على احتلاله المركزية رغم وجوده في أرض الآخر، في المقابل يحط بالآخر الّذي صمت عن أية قراءة له رغم وجود العلة نفسها وهي توفر المراجع والرّزق الّذي عمّ على النّاس ، فالسّبب الّذي دعى الأنا لقراءة المقامات هي توظيفها للألفاظ القرآنية ممّا يكسبه إقناعا للآخر، فيبرز أمامه بهيئة علمية ودينية.

تحمل مدينة مكناس عند الأنا كل دلالات القرب من ذاته؛ فهو يشعر فيها بفرادته حينما يقارن نفسه بالآخر المنتمي إليها فحرف الهاء في"هنا" أصبحت تحمل دلالة المركزية فهي تذكره باجتهاده في إنهاء المقامات الّتي عجز عن

قراءتها الآخر رغم توفر كل الظّروف الملائمة لديه. ثمّ يعود لينبهنا الرّحالة بطول نفسه في القراءة بحرف "هاء" لنعي أنّه بدأ في مرحلة قراءة نصوص أخرى أثارت إطلاعه لمقام النّووي والكلاعي .

يحتل الأنا المركزية في علم الفلك، فهو يستعين بها في تحديد الأوقات الدّينية كالصّلوات الخمس، والمواسم الواجب اقتناصها للمعية والتّقرب من الله، فلم يهنى باله بهذه المعلومات الضئيلة فيه، لكن حينما لا يجد من أفضل منه يستغلها؛ في إثبات تفرده في علم الفلك، فقد حدد الشرط الواجب توفره في الآخر المعلم له "شرط الإتقان" الّذي لم نلمح تحديده من قبل عند تعلمه للعلوم العُشبية؛ ليدل على علمه بهذا العلم العقلي كونه يسهل عليه رصد بعض المواقيت السّير، فقد أثبت تفرده في غياب المعلم برؤيته للنّجم الشّعاعي في مدينة تطوان، في قوله: رأيت ليلته النجم ذا الشعاع مائلا إلى الجنوب وشعاعه خيوط كنيران المحرقة يزيد طوله عم ذراعين ممتدا لعين الشرق" (حمادوش، 2015، صفحة 107) والمعتمد فيها على الرّؤية البصرية الّتي يستعملها الفلكي الماهر، فنلاحظ طغيان النّسق العلمي على رحلة ابن حمادوش العلمية أكثر من أي نسق آخر، فهو يبحث على كل مايطوره مترصدا الآخر العليم في العلوم العقلية، فهو يولي حرص وأهمية كبيرة في دراسة كل العلوم تقريبا هذا ما أدى به إلى رؤية ضعف الآخر في النّسق العلمي، وهذا الحكم ناتج من استغرابه للآخر الّذي لا يبحث عن معلمين حتى في علم الفلك.

يظهر الأنا قدرته على الالتزام بتكملة أعماله العقلية في ظل مفارقة تنقله، فهو يجتهد بملء وقته بقراءة كل ما يرى فيه خير لأناه ولغيره؛ لأنّه خليفة الله في أرضه، لذا فهو يرى بأنّه مطالب بتغيير نفسه أولا ثمّ الآخر.

3.2 **التأليف ومقصدية التغيير عند الرحالة** :

تزخر رحلة ابن حمادوش بتآليفه المميزة في علم الأعشاب، فالرّحالة يعتبر نفسه مسؤولا عن تغيير وضع العائلات المعانية من آلام المرض وقلة الأطباء وانتشار الآفات الاجتماعية داخل المجتمع، فهذه المركزية المسؤولة والنّابعة من ذاتية الأنا، جعلته يجتهد ويبدع في بعض التّعاريب المضافة على المفردات، فقد أكسبها الزّمن المصرح به لبداية تأليف "الجوهر المكنون من بحر القانون" ، نوعا من الدّقة "أول يوم من ذي الحجة" كما ساهم الفعل **ابتدأت** لرؤيتها طابع البداية ونية الاستمرار في إنهاء تأليف بقية أجزاء الكتب الأخرى، فتقسيم الكتاب إلى أجزاء يدل على تمكنه وبراعته وشعوره بالمسؤولية اتجاه الآخر الميت/ الحي، فعنوان الكتاب الّذي يتركب من جملتين "الجوهر المكنون" هو جملة اسمية تدل على تحقيق مبتغى الأنا من تأليف هذا الكتاب الطّبي ، وشبه الجملة "من بحر القانون" جاءت جملة استعاريه تتلاحم مع مضمون النّص، فلو انتقلنا من العنوان إلى فحوى هذه الأجزاء الثّلاثة للكتاب، نجده يتحدث عن السّموم وذواتها وعلاجاتها، وفي الأمراض ويهتشهد بجدول حنين ابن إسحاق الّذي ذكر فيه الأسباب والعلامات والعلاجات الّذي يتمنى في مضمر معلوماته العلمية أن تكون البلسم الشّافي على المتلقي لما تم ذكره من أدوية فعالة، فعلاقة العنوان بالنّص هي علاقة تضمين واختزال لفحوى النّص.

يتضمن المستوى الصّوتي ثلاث حروف مهموسة فقط (ح، ك، ه) أما بقية الأصوات المجهورة فهي تتسم بالقوة والوضوح، تعكس هذه الحروف رؤية الأنا في أسباب الأمراض المنتشرة وعلاجاتها العشبية.

يذكر الرحالة الجزء الرّابع فقط من كتابه والّذي عنونه بـ "كشف الرّموز في بيان الأعشاب" يتألف عنوان الكتاب العشبي من جملة فعلية وشبه الجملة، فدلالة الجملة الفعلية هي الحركة والتّغي ير المستحسنة الّتي يسعى إليها الرّحالة في مجتمعه؛ فالعنوان قائم على الرّموز والأعشاب، وهي ثنائية يتمثلها النّص في تعريبه للكثير من المفردات ، كما استعمل الأنا قبلها فعل كشف الّذي يوحي بالحركة والحياة المتجددة الّتي ينوي خلقها من هذا التّعريب ، فقد تألف هذا الجزء المذكور فقط على خبرة الرّحالة في طب الأعشاب نظريا وتطبيقيا.

تحتل الأنا المركز كونها ساعدت الآخر بما يحتاجه في العلاج فبتعبيرها "بضمير المتكلم المفرد، هو نفي للآخر- حتى ولو كان موجودا- وبالتالي هو استئثار بسلطة الكلام". (مؤدن، 2006، صفحة 236) .يحاول أن يقلّل من الآخر المتفرج وغير واعي للمعاناة.فلكون الرحالة قارئ جيد مهتم بكل العلوم هذا ما أكسبها الفرادة في سرعة التّأليف، وكأنّه يرشد القارئ بأن يكون مقداما لكل ما يساعد الآخر ويعالج نقائصه.

3.2 الاتجاه الصوفي

يعد الارتحال من أبواب إحياء زيارة الأضرحة الصّوفية؛ لاعتقادات عديدة يحملها المرتحل عن ضريح المكان، فلا تخلو أغلب الرّحلات من تتبعها وزيارتها، فهاهو ابن حمادوش يعقد عهدا بينه وبين ضريح علي الرّيف دون غيره من بقية الأضرحة، فقد كرر زيارته العديد من المرات أثناء إقامته في تطوان، لكنه سكت عمّا يريده من الضّريح، فهاهو يذهب إليه أثناء دخوله تطوان في قوله" وفي يوم الخميس الموالي له، ذهبت لزيارة سيدي علي الريف راجلا". (حمادوش، 2015، صفحة 33) .فقد خرق الرّحالة أفق توقع القارئ؛ لسكوته عن سبب ذهابه إليه في زياراته المتعددة له، في قوله: وفي الثامن زرنا سيدي علي الريفي". (حمادوش، 2015، صفحة 103). كما أفضى يوما كاملا لتويعه بخروجه منها، فزيارة الضريح يتبرك بها الرحالون بنية تيسير أمورهم في تلقي العلوم، والتّوفيق في التّجارة، والسّلامة في الارتحال ، كما تطلب معيته؛ لتأمين حاجاتها كعابرة سبيل لأنّ "اللّجوء إلى الأولياء لتحقيق الأماني والطّلبات ما هي إلاّ وظيفة تفريغية تمارسها هذه الطبقات أمام واقع يتسم بالتّعقيد" (التيجاني و القماطي، 1994، صفحة 78)، وهذا ما مارسه الرّحالة أثناء زيارة الضّريح؛ ليشكي همومه وما يعتريه على شكل حالات تفريغ طالبا منه معيته، في اعتقاد من الرحالة أنه يستطيع حل مشاكله عكس الآخر الحي. فيرجع بالخطاب في هذه المدينة إلى نقطة الانطلاق الّتي بدأ منها؛ ليكون التّوفيق حليفه في بداية حياة جديدة بالانتقال.

فالحلم يختص به الأولياء الصّالحين، فهو لم يبعد عن رحالتنا أثناء إقامته، بل نوّر قلبه وقت إصابته بالحمى الشّديدة " فبواسطة الحلم يمكن الاتصال بالعوالم العليا ورؤية ما هو خفي في حالة اليقظة" (سويري، 2016، صفحة 513)، وهذه درجة من أعلى الدّرجات الّتي تصل إليها الذّات، فتعلق قلبه بالمولى هو ما جعله يلهم في حالة اليقظة بكمية الأعشاب التي رآها، فهي المخلص من آلام الحمى المراودة في كل مرة، في قوله: حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من الكين كينه، فاشتريتها بستة موزونات". (حمادوش، 2015، صفحة 84).

فحلمه بالعدد ثلاثة يعطي للأنا ذلك الشّعور الإيجابي، الّذي يمنحه الثّقة في ذاته رغم ظروف المرض الّتي يعانى منها في سفره، فهذا العدد يعطيه القوة والحصانة؛ ليكمل باقي أعماله المؤجلة، والتي تساهم في تفوقه على الآخر؛ مما يمنحه

مركزية عليه، فربط الأنا الزّمن الوجداني بمعاناته بالحمى الشّديدة، فكانت ضحاء يوم السّبت هي بداية مانعة له من ممارسة هواياته، وبداية محفزة؛ لقيامه بدق الثّمن الأول من الدّواء، فبحدوث التّوبة يمتلئ القلب إيمانا وخشوعا، وهذا ما يؤدي إلى بداية التّوجه إلى الطّريق الصّوفي " وتتمثل بداية الطّريق الصّوفي في لحظة اليقظة من الغفلة بحصول التّوبة في القلب". (سويري، 2016، صفحة 31) .فاهتدائه بإضافة العشبة مع فنجان من البن لها دليل قوي في محاولة فرض مركزيته حتى في أوقات المرض، ليجعل من الدواء رغبة في زيادة استرخاء أعضائه، فهو يعلم جيّدا مكونات كل منها؛ لتمكنه من علم الأعشاب، فمزج الدّواء مع البن يشعره بألفته على الجسم، فالغربة تمنح الأنا نوعا من القلق والرّهبة في ظل تواجد الآخر، لهذا كان يختار ما يؤنسه في غربته كالقراءة.

يؤكد الأنا على شرب الأثمان الثّلاثة كلها، بدليل حصوله على عدة أعراض جسدية تتغير بتغير الزيادة في الثمن الموالي، فاستمرار الرّحالة في شرب الدّواء الّذي زاره في يقظته، كانت بدافع الرّغبة في تخلصه النّهائي من الحمى المعادية لطموحه.

وظف الأنا مجموعة من الصّور الشّعرية المتداخلة والمكملة لبعضها البعض ، هذا ما أكسبها وظيفة جمالية تزيينية في قوله: "كسر سورتها الدّواء كأنهما تعاندا وتدافعا فثقلت من شدة الحرارة" (حمادوش، 2015، صفحة 84) شبّه الأنا العشبة بالشّخص القوي الّذي يستطيع كسر الحائط المعوج داخل بيته ، هذا ما فعله الحلم بالمرض، كما شبه الدّاء والدّواء بشخصين يتعاندان ويتدافعان أثناء الصّراع، أمّا هذا فيمثل جانبين جانب الأنا والآخر ، والجانب الثاني هو قوة الحلم في التّخلص النّهائي مما يؤرق الأنا جسديا ومعنويا، مما سبب الصّراع ثقلا في جسده.

كما لمسنا كرامة شفائه ومدى قرب صلته بالمولى، فقد عانى الأنا من الحمى كثيرا وكان الحلم عليه بمثابة " شفاء المرضى بل إحياء الموتى" . (حمادوش، 2015، صفحة 84).عكس الآخر الحي/ المريض، وبقي تصارع المرض مع العشبة ملازما للأنا إلى غاية الزّمن الوجداني "غروب الشمس"، فالمفارقة بين المرض والشّمس هو أنّ هذه الأخيرة تعود لتشرق من جديد في كل يوم ، وفي نفس موعدها بالضّبط ، وفي الوقت نفسه ليس بإمكان أي مخلوق إجبارها على الرّحيل عكس الحمى الّتي قامت بعلاجها العشبة نهائيا؛ ليكون آخر مرة يراه فيها.

زاد الح لم للأنا حبا وتعلقا بالعلم الطبي، فهو يشعر بأنّه صار محتلا فيه المركز، فقد طور تعلمه الذّاتي بالقراءة والتّحقيق للمسائل الّتي انطلق منها في شرح ابن رشد ، فلم يكتفي بهذا الحد بل ذهب في خرجات ميدانية مع الآخر سيدي محمد كنجل الّذي خصص لهم وقتا في إعطاء دروس تطبيقية عن بعض الأعشاب المتواجدة في الجزائر، فأصبح يملك من العلم النّظري أي باستغلال كتاب ابن رشد، والتّطبيقي بخروجه في زيارات ميدانية، يظهر هذا جليا، في قوله : "فاليوم والحمد لله، أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض" (حمادوش، 2015، صفحة 164) فقد جمع الرّحالة الطّب والصّيدلة والحقيقة أنّه يحمل قدرة تعلم فائقة ، على عكس الآخر الغريب الّذي صوره في تكاسل، وعدم إقبال في تعلم العلوم.

فهاهو يكرس الرحالة حياته في طلب العلم بغية تغيير الحالة الاجتماعية؛ لأنّه يعتبر نفسه مسؤولا عن علاجه، فأصبح صيدلاني يفهم الأدوية وتفاعلاتها وتأثيراتها، وطبيب يبحث في الأمراض وأسباب حدوثها، وكيفية تشخيصها

ثمّ علاجها، هذا ما احتواه كتابه "الجوهر المكنون"، فمن خلال عقلية الرحالة نلمس عند الأنا نوعا من النّباهة حينما جمع بين علوم عقلية، فالطّبيب حينما يشخص حالة المريض يكون قادرا بعلمه أن يصف الدّواء الّذي يعالجه بالضّبط ؛ لأنّه واعي فعلا لمكوناته العشبية، فربما ما حفز الأنا للتّميز في طب الأعشاب بالإضافة إلى ما يعانيه المجتمع من آفات منتشرة هو ظهور الوباء وإصابة موت الحاج عبد القادر به، فنتيجة شعوره بالعجز عند رؤية الحاج عبد القادر وهو في صراع مع الموت، رأى أنه من الواجب عليه كذات مدركة بأن تدخل هذا المجال وتتميز فيه، يخبرنا الأنا عن تأليفه بالضّمير المنفصل الذي يشعره بالفردية، فهو يفرد نفسه بتمكنه من هذه العلوم الّتي تنفع البشرية، بالأخص أنّه بحث في العديد من الأماكن عن المجدين لها، فلم يجد من هو متمكن فيها، لهذا أصبح له يقين تام بتفرده في الأعشاب .

لكن يحاول أن يكون منصفا لذاته أولا، فهاهو يبحث ويدقق في منظومة ابن سينا، لكنّه لم يستطع التّجاوز في مقالات إقليدس، نظرا لقدراته الضّعيفة فيها، كما حاول أن يبرز مواطن قوته، وضعفه للقارئ؛ ليكون بمثابة قدوة له في الصّدق، وعلينا أن ندرك أنه ليس من الضّعف أن نكون غير قادرين على الإضافة فيما نقرأه ، بل ربما نتركه للمتخصصين وهذا الأفضل.

5.2 المرجعية الدينية:

حضور المرجعية الدّينية التي فيها من الفرادة ما يميزها في الرحلة، لكنّه ليس بالشّكل المعتاد الّذي نلمسه في الرّحلات الحجية، ونتمثل ذلك في قوله:" ركبت معجون(كذا) على منوال معجون الفلاسفة، لكن لم أسبق به، وسميته معجون الصلاح ومعجون الواحد" (حمادوش، 2015، صفحة 125) فالواحد اسم من أسماء الله الحسنى الّتي ترى أنّها تلائم تسمية هذا المعجون ؛ لكونه عديم المثيل في التّركيب والصّنع ، فهو يفرد صنعه بالاسم الّذي يدل على مرجعيته الدّينية، فهذه اللّمسة الاسمية ستشعره حتما بالفرادة في الصّنع ، فالرّحالة يريد ترميم النّقص الّذي يعانيه من زوجته بالسّبق في طب الأعشاب والأشربة المفيدة، فقد اعتاد على إيجاد ما أغفله بعض العلماء ؛ ليدخل من جهته بإضافة تنسب له مثل: ما أضاف من تعاريب أغفل عليها ابن رشد.

كما يدخل فرادة التميز والمركزية في الأشربة، في قوله: وفي سابع وعشرين طبخت شراب المصطكي، وهو من أفخر الأشربة". (حمادوش، 2015، صفحة 125). فالمصطكي هو المعروف باسم العلك الرّومي الّذي يستخرج من جذوع الأشجار، فالرّحالة يرى بأن هذا الشّراب من أفخر الأشربة، واختياره لهذا النّوع تحديدا تدل على مرجعيته الدّينية والاجتماعية على حد سواء، لأنّه من أهم المنتجات المفضلة لدى الشّرق والغرب المتأثر بهم.

تتقاطع الأنا بشكل مباشر مع النّص الدّيني المروي عن النّبي في قوله:" المعدة بيت الدّاء والحمية رأس الدّواء وأصل كل داء البرده " (حمادوش، 2015، صفحة 121)، فشبه المعدة المركزية في جسم الإنسان بنفسه كونه المركز ، و الحمية بشراب المصطكي الّذي يصدم المتلقي بأهميته، فللأسف كان شرب الخمر في تلك الفترة من بين الظّواهر المتفشية في " شوارع مدينة الجزائر الإسلامية التي عرفت قديما بشدة التّمسك بتعاليمها الدينية، وهم يتعاطون يوميا نوعا من المشروبات المسكرات" لذا حاول الأنا مساعدة الآخر بمحاولة استبدال الشّراب المحرم بما حلّله الله تعالى كمشروب العلك الرومي، الحامل لنفس فوائد الخمر، لقوله تعالى ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمرُ والمِيسِرُ والأَنصَابُ والأَزلاَمُ رِجسٌ

من عَملِ الشَّيطانِ فَاجتنِبُوهُ لَعلَّكُم تُفلِحونَ﴾ (المائدة: 93)، ، فيرى في تناول هذا المشروب أيضا تقليلا لبعض الأمراض الّتي تصيب الإنسان مثل: مرض السّكري، والقلب وغيرهما من أمراض العصر.

كما تظهر مرجعيته الدينية في تحديده للزّمن الحسابي، ألا وهو أحد الأشهر الحرم "الثّلاثاء ثاني وعشرين ينير الموافق لرأس السّنة الهجريّة" الّتي تُعظم فيها الأعمال، فتحديد هلهذا الشّهر المحرّم يمثل لها مرجعية دينية تعظم فيها الأعمال الصّالحة، لهذا بدأه بإنهاء كتاب الجوهر المكنون، الذي نواه؛ لإفادة الأمة جمعاء فهاهو يرى بأن يقرنه بالفعل بقيت ؛ ليوحي على استمرارية التّأليف والتّفاني في بقية الأجزاء الأخرى الّتي أراد بها وجه الله تعالى في هذا الشّهر.

كذلك لم تغب القصة الإسلامية عن رحلة ابن حمادوش الذي يُظهر بها قوة سرده للقصص الطّويلة ذات العبرة الاجتماعية والّتي تحمل مرجعيتنا الدّينية في مقابل هذا الانحطاط الأخلاقي الذي ساد آنذاك، رامزا للعنقاء بأناه الّتي لم تستوعب القضاء والقدر، فنظرا لطول المشهد الحواري سنشتهد فقط بالمحطات الّتي صدمت القارئ ، في قوله: "افرق بينهما وابطل القدر، قال لها فانك لا تقدرين على ذلك ، قالت بلى" (حمادوش، 2015، صفحة 220) أعطى الأنا للعنقاء بعض الصّفات الخارجية للأنثى، لكي تقنع وتتقبل الجارية بأنّ لها مرضعة تشبهها في وجهها وفي ثدي المرضعة، كما ليجعلها للقارئ أقرب للواقعية بهذه الصّفات المتخيلة.

سرد الأنا حكاية أخذ العنقاء للجارية المولودة ليستمر في السّرد حتّى يصل لقدرة الله في تدبير تقابلهما رغم بعد المسافات. اختزل السّارد سنين بلوغ الغلام، واكتفى بقوله :" بلغ الغلام مبلغ الرّجال" (حمادوش، 2015، صفحة 220)فوظف في سرد الحكاية بعض الأصوات الخارجية كالرّيح العاصفة الّتي حلّت بالغلام حينما كان في البحر، والّتي ضربت سفيته لتنقله إلى الجارية وكأنّه سار" خمسين في منتهى خمسين ليلة، في كل ليلة مسيرة سنة" (حمادوش، 2015، صفحة 221)، فنجد الأنا ينقل ما طالعه من الحكاية دون تدخل منه، فاعتمد في سرده على ضمائر الغائب "أمر، أعجبه، أخرجت، قال..."، ليدل على قدرة الله في تغيير الأحداث ، تناول ابن حمادوش رمز العنقاء في هذه القصة لأنّها توحي بتغيير الأقدار ، وتوقف موانع الشّر الّتي تقف في وجه القدر المختار من قبل الإنسان قبل نزوله الأرض، على عكس الكتابات الّتي ذكرت فيها أنّها من رموز القوة والتّجديد.

تحمل رؤية الأنا للعنقاء مرجعية دينية، لأنّ هذه الحكاية تتناص مع أشهر قصص القرآن الكريم الواردة في سورة النّمل، فنجد هناك تقاطع في بعض المواضع كوقت الحكم عليها بالعقاب بعد مخالفتها لأوامر سليمان، ثم يغير السّارد مجرى هذه الأحداث، فيما نلمس المفارقة داخل الفجوة الدّرامية الّتي يخبرنا فيها بتنبؤ سيدنا سليمان للمصاحبة في أمنع المواضع، ثم تتطور أحداث هذه الحكاية حتى يصل إلى اقتناع الجارية بمصاحبة الغلام، بحجة منه بأنّ الله هو الّذي أرسله ليؤنسها في غياب العنقاء، فحاول أن يُرشدها لما تقوله للعنقاء عند وصول عن فعل الاستئناس بالفرس بطريقة غير مباشرة ترتضيها العنقاء ولاينكشف سر المصاحبة داخل الفرس ، فأراد الله أن تكون العنقاء سببا في إبعادهما في المهد، وسببا في قبولها لهذا الاجتماع عن طريق استغفالها، فلما جاء الوقت الموعود سمع سليمان بمصاحبتهما، لذا قرر انعقاد مجلس الطّير ليحاسب كل واحد منهم على حدا، فاستدعاها ليحاورها عن القدر للمرة الثّانية، فوجدها مازالت تدعي لنفسها القوة في تغيير الأقدار وتستدل بما منعت عن الغلام والجارية، دون علمها أو سماعها بارتكاب فعل المصاحبة فلستهزأ بها في قوله:" زعمت انك تفرقين بقدرتك بين الجارية والغلام" (حمادوش، 2015، صفحة 222) ثم يأمرها

بأن تأتي بالجارية وهو يعلم بأنها ستعود بها مع الفرس، فقد أصبحت الجارية لا تستطيع الابتعاد عن الغلام، وستخلق ألف سبب لتكون معه داخل الفرس، وكأنّها صارت لا تستطيع مفارقة هذه الملاعبات على الرّغم من إخبار العنقاء بأن سليمان هو من استدعى حضورها، فهذا لم يستطع منعها من اجتناب هذا الفعل لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطانِ ومَن يَتَّبِع خُطُواتِ الشَّيطَانِ فإنَّهُ يأمُرُ بِالفحشَاءِ والمنكَرِ﴾ (سورة النور، آية 21) ، فمن لم يستح من الله في الخفاء لن يستحي من النّاس في العلن ، ففعل المصاحبة لم يكن من تأليف الرحالة وإنما أسقط ما يدور في واقعه بقصة تحمل مرجعا دينيا؛ ليحاول من خلالها الرّحالة أن يسرد بطريقة تهكمية ما يحدث في المجتمعات العربية الّتي كثر فيها الفساد والانحطاط الأخلاقي.

ثم يكمل الرحالة سرد الأحداث النهائية للقصة بعدما وصلوا لسليمان، فقد علمها كلمات؛ لتحفظهم في غيبها، في قوله: " من شاء الله تعالى أن يكون سعيدا كان سعيدا، ومن شاء أن يكون كافرا كان كافر لا يقدر أحد أن يرفع قضاء الله وقدره بحيلة ولا بفعل ولا لعلم" (حمادوش، 2015، صفحة 223)، وبعد تلقيها هاته الكلمات الّتي لم تقتنع بهم العنقاء بقيت تقنعه بأنّ الجارية لم تجتمع بالغلام في الحرام، هذا الإصرار للعنقار جعل سليمان يأمر ما بخروجهما من جوف الفرس لكي تؤمن العنقاء بالقدر المحتوم عليهما، فبعد رؤيتهما طارت العنقاء نحو الغرب، واختفت في البحر حياء من الطّيور، لكنّها تعيد وتكرر نفس الخطأ تقريبا، فهي لم تستح من الله على فعلتها واستحت من بقية الطّيور، وحتّى البومة المتكفلة بالعنقاء؛ فقد لزمت الأكام والجبال، وقررت بأن لا معاش لها بالنّهار، لأنّها استحت هي الأخرى من بقية الطيور كذلك، فما يجد الأنا إيضاحه من خلال هذه ال قصة الّتي تحمل مرجعية دينية هي ترسيخ الإيمان الحتمي بالقضاء، والقدر لقوله تعالى﴿ إِنّمَا أَمرهُ إِذَا أَرادَ شَيئًا أنْ يقُولَ لهُ كُن فيكُونُ﴾ (يس، الآية 82)، فلا بد للإنسان أن يدرك عدم قدرته على تغيير القدر ، ولو سعى بكل الطّرق، ولو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بما هو مكتوب من نصيبك.

6.2 العادات والتّقاليد

كما تظهر تجليات المركزية عند جمعها لمناسبتين سعيدتين، فرحة خ ير يوم طلعت فيه الشّمس بفرحة ختان ابنه الصّغير، في قوله: "وفي يوم الجمعة لقيت حجاما فأخذته معي إلى داري وطنت أن إبني لايعرفه. فدخلنا الدار وقلت له أصعد مع عمك للعلوي ففر إلى خارج الباب فاتبعته أنا والحجام. ولم يعلم أهل المنزل ماهو الأمر فقبضته وأتيت به العلوي فأمسكته" (حمادوش، 2015، صفحة 118) ، أظهر الأنا مركزيته في أخذ قرار الختان بنفسه دون علم الآخر الذي له من الحق مثله أو ربما أكثر، ونستدل بذلك بالنّبي الّذي أوصانا بالأم ، فالرّحالة اقتنص ضعفها في الحكم، بإظهار قدرته ومركزيته في أخذ القرار وتطبيقه، وكذا استغل ضعف الآخر أي الطّفل الذي تملكه شعور الخوف هو كان الدافع لهروبه؛ ليظهر الأنا بمركزية طاغية جعلته يغير سلوكه اللّطيف مع ابنه الذي لم يراعي نفسيته؛ فهاهو يخبرنا بأنّه قد ترصد له وكأنّه شرطي يقف له في الصّغيرة قبل الكبيرة، فغيب الأنا مركزية العائلة في مقابل بروز مركزيته، مما جعله يلغي العادات والتقاليد الجزائرية في لباس الطفل وكذا في إقامة حفلة كبيرة فلم يطبق الرحالة الحفلة الدنيوية واكتفى بالحفلة الدّينية التي ربطها بمناسبة عيد المسلمين أي بيوم الجمعة، ولم يقم لها أي حفلة تدعى فيها النسوة للاحتفال بتختين الطفل بالأغاني والزغاريد كبقية الأعراس الجزائرية.

فالرحالة أصاب في جعل مناسبة الختان هي عبارة عن حفلة دينية " فنحن لانعرف الحاضر دون الماضي". (ميجان و سعد، 2007، صفحة 22) بتمسكه بالشرع والتّخل عما يؤرقه من ديون، فالتخلي عن الحفلات الدّنيوية هي ربما ماسيرجع الآخر إلى صوابه وتذكره بالآخرة للحد من انتشار الآفات والانحطاط الأخلاقي.

وجود الأنا في المركز "يحيل على وجود الشخصية الثانوية" (مؤدن، 2006، صفحة 234) فلم يكن الرحالة هدفه منها الإعلال من شأنه في مقابل الحط من شأن الآخر، لكنه حاول أن يظهر مدى معاناته، في مقابل يريد أن ينهض ويعالج ما أصيب به الآخر من انحلال في العادات والتّقاليد والأعراف والقيم، باعتباره جزء لا يتجزأ منه، فهو انعكاس بالنسبة له أمام الآخر.

3. ثنائية الحضور والغياب:

تمثّل هذه الثّنائية الدّور الذي يلعبه كل من الأنا والآخر داخل الرّحلة، ، فيحاول في كل مرة أن يكون الآخر حاضرا في بعض المنجزات في ظل غياب الأنا، والعكس صحيح إذا حضّر الأنا بشكل بارز يغيب بالضّرورة هذا الآخر.

حظي الأنا برؤية م غير منصفة لذاته بمجرد غياب لفظة واحدة عليه، فأنصف مقالة الآخر على نفسه كونها هي الحاكمة بين أناه والآخر، في قوله: فبقيت في آخر المقالة السادسة في لفظة مثنات، فلم أجد لها معينا" (حمادوش، 2015، صفحة 162)، لكنّنا نعلم جيّدا أنّه ليس لعجز منه في قدراته، وإنّما يعود ربّما نتيجة؛ لذكائه المفرط وقدراته الفائقة في البحث، فأثرت هذه اللفظة بطريقة غير ظاهرة على نفسيّة الرحالة، مما أصبح يشعر بعجزه مقابل تغلب لفظة عليه، فهو لا يمكن أن نستثنيه من عباقرة القرن 12هـ؛ لغياب لفظة واحدة وهذا ليس إنصافا في حقه، لكن غيابها زعزعت أناه، فبرز نسق الآخر في مقابل ضعف الأنا، فنحن نعلم بأن الشّخص الذّكي قد لا يستطيع حل بعض الأشياء السّهلة عكس متوسط المقدرة الّذي يشعر بالسّهولة والصّعوبة الحقيقيّتين، فيفهم السّهل ، ويعترف بالصّعب، عكس الأنا الذي يجد نفسه في الأعمال الصّعبة مستمتعا بالبحث والتدقيق.

كما يعلي الأنا بشأن الآخر المعلم للأعشاب في خرجاته الميدانية؛ ليتعلمون بها في كل مرة عشبة مختلفة تطبيقيا، فهو يبين مدى قدرة الآخر في هذا العلم ومكان تواجد الأعشاب المذكورة في الجزائر، فالرحالة يمزج بين فائدتين يقدمهما الآخر للأنا فائدة الأعشاب ومكان تواجدها، في قوله: "خرجت مع الإخوان، أحدهم يعرف الأعشاب لنتعلم منه، فتعلمت الأفثمون. قطعنا منه ما شأنا" (حمادوش، 2015، صفحة 120)، فهم لا يحتاجون إلى تعلمها نظريا أو تنقلهم للمجئ بها، كما يبين مدى تميز الجزائري على غيره الذي ارتحل إليه باحثا فيه عما يُعلمه طب الأعشاب، فالآخر المنتمي إلى الجزائر وكأنه بهذه الخرجات التي يقدمها للأنا يحاول من خلالها تعليمهم التخلي وروح المسؤولية في تغيير ما سار إليه الآخر الذي تحلى بكل ما يسيؤ في الانتساب للجزائر.

يحاول الأنا أن يكون واقعيا من خلال ما سرده للمعلومات الطّبية أو الشخصية عن الرّحالة؛ ليبث في القارئ حالة من الرّاحة نتيجة صدق الأنا، وليجعل من الرّحلة العلمية مصدرا للمعلومات الّتي يحاول بها أن ينير جهله اتجاه ما يعاني منه.

كما لا يخفي الرحالة غيابه في ظل دروس البناني ، فأعطى ابن حمادوش نظرة جيّدة عن الشيخ البناني بالرغم من تجاوزات الأنا في غيابها للدروس، فالشيخ ظهر بأسلوب متفهم في نفس الوقت لم يكن الرحالة متجاوزا لأنه بالرغم من غيابه كان يقرأ عليه في كل مرة طالبا رضاه بهذه القراءة، في قوله: وقرأت عليه في هذه المرة الخبيصي إلى القضايا بالشرح قرأته بلساني وهو يقابل. وفارقته، رضي الله عنه، وهو راض عني" (حمادوش، 2015، صفحة 65)، فرؤيته لما يود تحقيقه أشبهتني برؤية الأسد الدّقيقة الذي لا يستسلم إلاّ بعد الظّفر بالفريسة، فبالرّغم من سن الأنا الرّاشد إلاّ أنّه كان يحاول أن يبقى في منزلة المتعلم الّذي يراعي شعور شيخه، بينما قابل الآخر خروج ه بتقبل ووعي نظرا لظروف الرّحالة دون غيره من المتعلمين المقيمين.

تحمل هذه العلاقة بعض التّوجيهات للقارئ، فالأنا يحترف الدورين الّذي نقل من خلالهما الصّورة الّتي تنبغي أن تكون بين المعلم والمتعلم؛ لوعيه بشعور المعلم الّذي يعاني من بعض سلوكات متعلميه، أما الآخر فقد كان أكثر تأثرا عن بعض التّجاوزات غير مسموح بها، في الوقت نفسه يؤكد على ضرورة تفهم ظروف المتعلم، هذا ما جعل الأنا يعطيه مكانة خاصة. تبرز أخلاق ابن حمادوش في ظل حضور معلمه ، وهنا ينتابني بيت أحمد شوقي

قُم للمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا كادَ المعَلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا

وفعلا كان الرحالة خير دليل على طالب يراعي شعور معلمه، ف يظهر برؤية معتدلة في إنجاز الأعمال ، هذا ما جعله يلعب مع الآخر ثنائية الحضور والغياب فيظهر مواطن قوته وضعفه من خلال بعض العلوم العقلية التي جعلها الأنا مقياسا للحضور.

فالحضور والغياب لايقتصران فقط عند ابن حمادوش على الجوانب العلمية فقط، بل تجاوز العلوم ودخل في الخصوصية التي يخجل من إظهارها الآخر، فالأنا خرق أفق توقعات القارئ، وكان عكس الآخر الذي غالبا ما يغيبه لانه يعتبره شيئا خصوصيا، فكان الغرض من حضور عمره هو استبشاره بتزامن يوم ميلاده مع الشّهر المحرم الّذي هاجر فيه النّبي من مكة إلى المدينة مختومة بإنجازات مشرفة كالجوهر المكنون، وقراءة مقالات اقليدس وغيرهما ، مما جعله يفكر ويتمنى زيارة البقاع المقدسة وهو في هذا العمر الذي يحج ويعتمر فيه الآخر، فالرحالة بتصريحه للسن يرى أنه لابد له من رحلة حجية ليكافئ بها نفسه على ما أنجزه طيلة السّنوات الفارطة. فقد اكتمل عقله ونضت تجربته العلمية، فلا ننكر فضل ودور رحلاته العلمية في زيادة وعيه وإدراكه، هذا ما جعلها تدرك مدى خطورة قلة وعي الآخر، فبحضور سنه في الرحلة يرى أنّه يتخلى على كثير من التّصرفات الّتي يخفيها المجتمع العربي ؛ لأن الآخر يستحي بقول عمره المضبوط بالأخص حينما يتجاوز سن الأربعين سواء عند المرأة أو الرجل ، فبالرغم من سنه استمر الرحالة في طلب العلم، وناقض ما هو شائع في مجتمعاتنا الإسلامية، لأنّه تقريباكل من في سنه يولون أهمية للعبادات الدّينية، ويهجرون الدنيا، لكن الرحالة خالفهم بالسفر في طلب العلم؛ بنية إفادة الآخر، ونيل وجه الله بالأعمال الصّالحة.

4.استنطاق الواقع الاجتماعي:

تلقى الأنا عن الآخر مجموعة من الأخبار الحسنة، وكأنّه كان يريد سماع هذه الصّفات الّتي آنسته في غربته، لكن سرعان ما تتغيّر تلك النّظرة الأولية، حينما يجد عكس ما تصور؛ ليُحمّل نفسه مسؤولية تغيير بعض الصّفات القبيحة لهذا وظفها في شكل خطاب سّاخر، إذ نجده يصور ما حدث في ذهنه من تناقض من خلال ثنائية (الواقع/ الخيال) ، فلستحدث في رحلته شكل المقارنة بين ما سمع وما رآه من قبل أولاد مختار، و للإشارة فإن فن المقامة هو" مغامرة بطل واحد ظريف، ذلق اللّسان، عالم باللغة، خبير بدقائقها" (المنعم و عبد، 1994، صفحة 16) وقد تقمص الرّحالة هذا الدّور بإتقان.

يُحمل الرحالة نفسه قضية التّغيير في الآخر الّذي تغيّر في كرمه، وأصبح عكس ما شيع عنه، فحاول في رحلته أن يفضحهم ويعيد إلقاء السّهام عليهم، مثلما فعلوا عند إقامته عندهم، في قوله: ومنه إلى النوينيات عند الكرم، الذي ليس فيهم رحمة ولاكرم، من أولاد مختار، لا أجيروا في تلك الدار، بتنا عندهم ليلة" (حمادوش، 2015، صفحة 72) ، بداية من الطريق إليهم إلى غاية الحدث الرّئيس، في لغة إيقاعية تزيد من فضول القارئ في كل مرة؛ ليتتبع تطور الأحداث، فتعبها من المسالك الّتي سخرت منها قبل الوصول إليهم، وكأنه بقربها إليهم كانت تنتظر الخلاص والرّاحة، فوجدت عكس ما سمعت عنه في مفارقة بين الشّائع في كرمها وما وجدته من بخل، وما أثار فيه من طاقة إبداعية سلط فيها الضّوء على " الوضع الاجتماعي والأخلاقي، فهو كاتب إصلاحي قبل كل شئ تعنيه الحياة الاجتماعية، وهو مضطر أن يأخذ موقفا اتجاه من يكتب إليهم، وهو موقف النقد والإصلاح والتّربية شأن المصلحين عامة" (الرّكيبي، 1983، صفحة 81)؛ ليحمّل مقامته في بنائها اللّغوي الواقعي طاقة غضب واستهزاء، بغية التّعديل في بعض السّلوكات التي يفتخر بها الآخر الجزائري عن نفسه وعن غيره كالكرم على سبيل المثال، لهذا اعتمدت في تحقيق أهداف الانتقام أهم تيمتين هما تيمة التّهكم والسّخرية، فقد انتقمت من أولاد مختار بقدر إيذائه م النّفسي ، لأنّ اعتماده على السّخرية كان الهدف منها " مهاجمة الوضع الرّاهن في الأخلاق والسّياسة والسّلوك والتّفكير، وبالطبع فإن هذا الوضع الرّاهن لابد من أن يكون محصلة لممارسات عدة خاطئة سابقة، مما ينذر بأخطاء ينبغي التحذير منها" (شاكر، 2003، صفحة 52).فلا شكّ أنّ في سخريته علامة تحذير لهم على مواصلتهم اتباع طريق الهاوية في قلة الرحمة والكرم.

ففي المقامة تغيب الأنا المتنقلة، بينما في الرّحلة نجد أنّ الرّؤية مختلفة، فأنا الكاتب هي الشّخصية المحورية في الحكاية؛ لأنّها هي الّتي سافرت إلى مكناس طلبا للعلم والتّجارة، فقد تحملت من المشاق ما يحقق هدف الرّحلة لذا احتاجت من الآخر العون والمساعدة المادية والمعنوية المعروفين بها، والّذي كان السّبب الرّئيسي في كتابته للمقامة.

وفي سياق آخر ينقد الأنا بسخرية بلاد تسمى القصر، فوصفها في قوله:" فليس يسكنها حر، مهدمة البناء، نائية الماء، ومع أنها كبيرة المنشأ، قليلة الممشا" (حمادوش، 2015، صفحة 72)، فاستعماله للانزياح في كبرها مقابل قليلة الممشا والماء، دليل على سخريته بالمكان الّذي ليس فيه أدنى ضروريات العيش المريح التي تجعله مسلكا للرّحالين.

كما أتمت الأنا رسم قصتها بالتّأثيث الشّعري كما سماه شعيب حليفي، فأولاد مختار في رؤيته هم أول من بد أُ بالأذى النّفسي عليه ا، فيظهر استغرابها من قلة رحمة وكرم أولاد مختار وقت المبيت، وهذا ما أضر بها وجعلها تقول من الشّعر ما تهجيهم به في استعمالات بديعية، وإلمامات من اللّغة، وبما أن الحكاية واقعية، فإنّ المانح غير موجود داخلها؛

لأنّ كل ما يهب للأنا هو عطاء سيحقق هدفها، وبالتّالي من المفروض أن يكون الشئ الممنوح للكدية هو(طعام أو مال)، أمّا الأنا فلم تجد ورفقائها ما يعينهم على التّخلص من مشقة السّفر الّتي تحمل في طياتها التغيرات المزاجية للرحالة الّتي كانت سببا بارزا في نهوضهم الباكر للعودة إلى الارتحال، فأصبحت الأنا هي المانحة للمعنويات التّهكمية عن طريق ماتمتلكه من قريحة ألمت بها في لغتي الشّعر والسّخرية لا ممنوحة للماديات، فهدف(المال/ الطّعام) غير محقق في هذه القصة.

لم ينتقد الرّحالة بعض الصّفات بل تجاوزها إلى السّخرية من هيئة الآخر، فصدم المتلقى، في قوله: "فبتنا بسيدي علي العسر، خرج إلينا أقبح العشيرة كأنه مغري" (حمادوش، 2015، صفحة 72) . فالرحالة لم يترك شيئا عن واقع الآخر ولم يسخر منه رغبة منه في تغيير هذه الأوضاع المزية الّتي يعانون منها.

هذا لا يمنع الرّحالة من وصفها للطرق الّتي اضطر فقط بالمبيت عندها،ا أو العبور عليها؛ ليظهر مدى القهر ومدى تدني أوضاعها البيئية، كمبيته الّذي أتاح له الفرصة في نقد المرج الطّويل، الّذي به قلة من الغرّ والبط، مقارنة بطول المرج، في قوله: "وبتنا في أول المرج الطويل، الذي به طير الماء من غر وبط وغيره كثير لا قليل". (حمادوش، 2015، صفحة 72).استعمل فيها التّضاد للطّير الموجودة بالمكان في "كثير ولاقليل" فبالرّغم من طول المكان، ينتقد الأنا قلة تواجد البط والغرّ بصفة كبيرة فيه.

كما لا تسلم بعض البلدان من سخرية الرحالة، فهاهو يسخر من بلاد تسمى بالقصر وهذه السخرية نابع من اسمها الدال على هيئة الرقي والشّخصيات ذات المناصب العليا، إلّا أنّه لم يجد فيها أدنى سبل الحياة بالرّغم من كونها بلد، في قوله: "ومنه تعدينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حر، مهدمة البناء، نائية الماء ومع أنها كبيرة المنشأ، قليلة الممشا" (حمادوش، 2015، صفحة 72).

هذه الأوصاف لم تمنع الرحالة من اكتفائه بما سرده، بل تطرق إلى اللّصوص الّذين اعترضوا طريقهم حين الخروج من عند أولاد مختار متوجهين إلى مكناس؛ لبين مدى تقهقر حال الآخر الّذي سخر منهم في أبيات شعرية توحي بمدى الخطر من الأوضاع الاجتماعية، في قوله:

فسرت به السير الحثيث كأنني بيوم سويد اذا سلمت من الغم

دخلنا إلى مكناسة والزوال قد تلألأ بالفي من الشمس في اليوم

تحير أمر الساكنين في أمرنا وكل يقول اشكروا الله للسلم " (حمادوش، 2015، صفحة 73)

يشكي الأنا في هذه الأبيات همه وحزنه مما اعتراه في المسالك الغريبة، فهو يشبه نفسه بسويد حينما تسلم من الغم فسكت عن همه في هذه الأبيات التي ستبقى خالدة، فهاهي الأنا تمثل كل من دور الرّاوي الدّاخلي والخارجي المشاركان في الحكاية، أما الآخر أي سكاني مكناس فقد أوردهم على هيئة مستمعين شاركهم الأنا معاناة وصولهم . بيّن البيت

الثالث مدى خطورة كل الأوضاع التي سادت آنذاك، هذا ما أدى إلى استغراب أهل مكناس بدنو الرّحالة وأصحابه منهم، فلعلمهم بخطورة هذه الطّرق وصعوبتها هذا ما جعلهم يذّكرونهم بشكر الله على سلامتهم من البلاء .

تكشف رؤية الأنا عن إحدى الصفات المجتمعية الّتي سمع عنها الأنا قبل سفره، ليحدث له صدمة مما رآه فهي" لا تقف الـ"أنا" بمعزل عن قالب مهيمن من المعايير الأخلاقية والأطر الخلقية المتصارعة. ويعد هذا القالب بمعنى هام الشرط لنشوء الـ"أنا" أيضا" (جوديث، 2014، صفحة 45)فحين سرد هذه المقامة لم يكن هدفه منها السخرية عن ما صادفه في رحلته من أفعال تناقض وتهدد الأخوة، بل اتخذها وسيلة للتّعبير عن واقعة اجتماعية تمس الرحالين عموما بهدف نقد ماسمعه، وتعديل الرّؤية للقارئ، وإصلاح هذه الفئة دون غيرها، وهذا بإعطاء بعض الصّور السلبية عن الآخر.

5. خاتمة:

تمكنت في نهاية هذه الورقة البحثية من رصد النّتائج الآتية:

– استعمل الأنا فن المقامة ؛ ليثبت رؤيته للقارئ، فهو يرى بأن سخريته هي الطّريقة المجدية ؛ لتغيير صفات هذا الواقع الاجتماعي المقهر للأنا وللآخر.

– حاولت الأنا من خلال رؤيتها لنفسها أن تحتل المركز بالأخص في التّعلم الذّاتي، في المقابل اعتبرت الآخر كهامش في القضية نفسها، كما رأت أن الآخر لا يرى تغيير نفسه أنه من أولوياته، فاعتبره بعيدا عنه،مما جعلها يحذر القارئ وينبهه من اتباع طريقة الآخر في شكله المضمر.

– اعتمد الأنا في بعض المواضع على ثنائيتي الحضور والغياب ؛ فقد ظهر برؤية معتدلة تنصف الآخر، مغطيا بعض جوانب نقصه، بالأخص في منجزات علمية لم يستطع الأنا إتمام دراستها على الرّغم من علمه وقدرته في التّحقيق والتّدقيق والتّأليف.

– يرى الرحالة بأن إضافة بعض النقائص على مؤلفات الآخر هي ضمن دائرة اهتماماته؛ ليخرج من مأزق التّقليد.

– زيارة الأضرحة والتّضرع للأولياء الصّالحين، كان سببا في إلهامها واكتشاف شغفها في علم الأعشاب.

– تحاول الأنا تغيير وتقويم الأنا والآخر، فظهرت مهاجمة له في خطئه ومنصفة في مواضع أخرى، فهي لم تعتبر الآخر كجزء مستقل عن كيانها.

– الرّحلة وسيلة لتعليم القارئ، فالرحالة استغلها هذا الجنس المثالي؛ لتحفيز القارئ في شكل مضمر.

6. قائمة المراجع:

1. التيجاني، و ومجموعة من المؤلفين القماطي. (1994). الإنسان والمقدس. دار محمد علي للنشر والتوزيع. تونس
2. الرويلي ميجان، و البازغي سعد. (2007). دليل الناقد الأدبي(إضاءة لأكثر من تسعين تيارا أو مصطلحا نقديا معاصرا). المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع. لبنان
3. الشيخ محمد أحمد. (1987). كتب الألغاز والأحاجي اللغوية وعلاقتها بأبواب النحو المختلفة. ،الدار الجماهيرية للنشر. ليبيا
4. بتلر جوديث. (2014). الذات تصف نفسها. (فلاح رحيم، المترجمون). التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.لبنان
5. سارة سويري. (2016). الصوفية في الإسلام(آنثولوجيا). محفوظة لمنشورات الجمل. بيروت_بغداد
6. عبد الحميد شاكر. (2003). الفكاهة والضحك- رؤية جديدة. عالم المعرفة. (دب)
7. عبد الرحيم مؤدن. (2006). الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر. الأهلية للنشر والتوزيع. لبنان
8. عبد الرزاق بن حمادوش. (2015). رحلة ابن حمادوش(المسماة: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال). عالم المعرفة. الجزائر
9. عبد الله الرّكيبي. (1983). تطور النّثر الجزائري1830-1970. الدار العربية للكتاب .(دب)
10. علي عبد المنعم، و عبد الحميد. (1994). النموذج الإنساني في أدب المقامة. مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر. لبنان